قصّة قصيرة

«غازون الخرشودي»

فاتح عبد السلام

نظر غازون الخرشودي يساراً ويميناً، فتأكّدَ من وجود الرتبة اللامعة على كتفيه ثمَّ تقدَّم خطوات فيها جلبة وصخب وزهو إلى سيَّارةٍ كبيرةٍ لنقل المسافرين. دفعَ بابها فانفتح وصعد ملقياً نظرةً خرجت من أنفه مباشرةً لا من عينيه الغائرتين، فكانت نظرةً طائشةً لم تقع على أحدٍ في السيَّارة الغاصّة بالرؤوس.

تأفَّفَ.. وكادَ يبصقُ.

وعندما وجدَ مقعداً منفرداً قربَ السائق نقل أنفه ما بين المقعد ووجوه الراكبين ثلاثَ.. أربعَ.. خمسَ.. ستَ نقلات. وكادَ يبصقُ ثانية.

وكانَ مؤمناً إيماناً قاطعاً بأنَّ هؤلاء الركّاب قد أدركوا لحظة رأوهُ أنّهُ أُضطرَّ للركوب معهم بعدَ أنْ تعطَّلت سيَّارتهُ العسكريّة الخاصّة.

كررَ نقلَ أنفِهِ ما بين المقعدِ الفارغِ ووجوه الركّاب وهو يريد أنْ يؤكّد لهم حقيقة وجوده بينهم.

كان مستعدّاً تماماً لأن يصرِّحَ بلسانه أمامهم عن سبب اضطراره إلى الركوب معهم ولكنّه اقتنع بأنَّ رأسه ونظراته وتأفّفه ورتبته وأنفه قد أدَّت جميعاً مهمّة الكلام خير أداء. وإلاَّ بماذا يمكن أنيفسّر وجوده في سيَّارة مليئة بالنَّاس؟.

جَلَسَ. وتمَّ بجلوسه عدد الركّاب فانطلقت السيَّارة متّجهةً في طريقٍ صحراويٍّ إلى مدينةٍ بعيدة.

قرأ ملاحظةً كُتِبَت بخطٍّ أحمر عريض (رجاءً التدخين ممنوع)، وأشعل سيكارةً مبالغاً في طولها.

نظر السائق عبر مرآته إلى وجه الرجل الذي ينبع منه دخان كثيف ذو رائحة كريهة جدّاً، كأنَّ الذي في اللفافة ليس تبغاً، ربَّما لم يكن تبغاً، ربَّما رائحة زيت عتيق.

انزعج صبيّ السائق وهمَّ بالتوجُّه نحو الرجل، فأمسك السائق بكتفه وهزَّهُ لحظةً قائلاً: ماذا ستفعل يا مجنون؟.

ـ لن أفعل شيئاً. سوف أسأله إنْ كان يقرأ أو لا يقرأ.

ـ أيّها الأحمق، لا أريد أيّ مشكلة، إنَّ هذا زمن حرب، ألا تعرف ما معنى أنْ نكون في حرب؟.

ـ وماذا يعني هذا؟ الحرب لم تقع على رأسه فقط، لقد وقعت على رؤوسنا كلّنا.

ازدادَ الدخان.

واحتقنت الوجوه من تأثير الرائحة الكريهة.

قال راكبٌ لصاحبه: هذا غير معقول، لم أشمّ رائحة دخانٍ كهذه من قبل.

ـ ربَّما ليس تبغاً.

ـ مخدّرات؟.

ـ لا أعتقد. فالمخدّرات بلا رائحة.

ـ أيكون قاتاً؟

ـ لا أعرف شيئاً عن القات.

ـ وأنا كذلك.

ـ هل قرَّرت أنْ تفعلَ شيئاً؟.

ـ قرَّرتُ النزول عند أقرب نقطةٍ قادمة.

ـ سأجيء معك.

توقَّفت السيارةُ فنزلا منها بعدَ أنْ ألقيا على الرجلِ نظرةً من أسنانهما.

سارت السيّارة.

أخرجَ الرجلُ لفافةً أكثر طولاً من الأولى. وقال للسائق:

ـ أريدُ ناراً.

أجابَ السائق وعيناهُ في المرآة: أمرك.

أصطكّت أسنانُ الصبيّ المفتول العضلات وهو يأخذُ علبةَ الكبريت إليه.

أشعلَ الرجلُ السيكارةَ الطويلةَ فخرجَ منها دخانٌ أسود حتى ضاقَ مجال الرؤية في فضاء السيَّارة.

صرخ السائق في وجه الصبيّ: اجلس مكانك ولا تتصرَّف كالحمقى.

ـ نكاد نموتُ من هذه الرائحة.

ـ حسناً سأفتحُ كلَّ الساحبات الهوائيّة الإضافيّة وربَّما كانت هذهِ آخرَ سيكارة له.

توقّفت السيّارةُ في مدينةٍ صغيرةٍ فترجّل منها رجلان وامرأة يكمّمون أنوفهم بمناديل قد أصفرَّ لونُها.

كادت السيّارة تنطلق ثانيةً لولا أنْ جاء صوت رجلٍ من عمق الدخان الذي فيها:

ـ انتظر أيّها السائق، أريد أنْ أنزلَ، إنّني أختنق... سأموت.

وانطلقت السيّارة.

قال الرجل: أريدُ ماءً بارداً.

فأرسلَ السائقُ صبيّهُ على الفور يحمل قدحاً.

امتعض الرجلُ: قدح واحد؟

ـ سأجيئك بآخر.

ـ لا يكفي أيضاً. أريد إناءً كبيراً.

احمرّت عينا الصبيّ وتيبّست شفتاهُ وزأرَ في دمهِ أسدٌ هصورٌ ما لبثَ أنْ صرعهُ صوتُ السائق المفاجئ:

ـ إذهب إليه حالاً بالإناءِ الكبيرِ كلّه.

جَمَعَ الصبي بقايا صوته المخذول: وماذا سنشرب نحن وأمامنا هذهِ الصحراء القاحلة؟.

ـ اسكت الآن.

فتمتمَ الصبيّ مع نفسه: ما أصبركَ أيّها السائق! ولولا أنّني أعرف أنّك شجاعٌ لقلتُ ما أجبنكَ.

دارت رقبة الرجل القصيرة، فكان هناك قريباً منه شخصٌ غارقاً بين دفّتي كتاب، منقطعاً تماماً عمّا يدور في السيّارة.

قالَ الرجلُ في نفسه: هل يعقل أنْ يصنعَ كتابٌ برجلٍ هكذا؟ أيّ كتاب هذا؟

وفي لحظة خاطفة، قرأ اسم الكتاب. كانتا كلمتين مبهمتين وغريبتين تماماً عنه، فلم يسمع بهما من قبل ولا يعرف معناهما. وحدّث نفسه:

(لولا خوفي من ضياع مهابتي لسألته ما معنى خريف البطريرك. ولكن لِمَ السؤال، سوف أختلسُ النظرات إلى الصفحة المواجهة لي. إنَّ عينيَّ من قوّة البصرِ بحيث يمكنهما هتك أستار، فكيف بكلماتٍ في كتاب).

قلب الشخص صفحةً من الكتاب فقرأ الرجل خلسةً:

(كان يزعق بالضبّاط المرتاعين الذين كانوا يتدرّبون على الرمي على هدف صوري. جرّدوهم من أسلحتهم، كان يأمر بدون أنْ يتوقّف مع نبرةٍ قويّةٍ من الحنق والسلطة بحيث كانوا يلقون أسلحتهم بأنفسهم. جرّدوهم من هذه البدلات المخصّصة للشجعان المخدومين. كان يأمر. وكانوا يتجرّدون منها).

قَلَبَ القارئُ صفحةً أخرى:

قال الرجلُ صامتاً: يا إلهي ماذا يعني هذا الكتاب!؟،

أكاد أفهم.. ولكن لأقرأ المزيد.

(في كلِّ فترة سهوٍ كانت تبرز من جديد تهديدات ذلك الحيوان الطفيليّ ذي المجسّات الذي يعتقد أنّه أبادهُ في حين كان لا ينفكّ يتوالد ويتكاثر في ظلِّ سلطته بفضل الامتيازات وبقايا السلطة والثقة العالية التي كان يتوجّب عليه أنْ يهبها للضبّاط الأكثر خدمةً رغماً عنه. إذْ لا يمكنه الاستغناء عنهم ولكنّه لا يستطيع أيضاً أنْ يظلَّ معهم).

فركَ القارئُ التَعَبَ في عينيه مطبقاً الكتابَ وانتبه إلى الرجل الذي فَتَحَ عليه عينين حمراوين كجمرتين وبادَرَهُ رأساً:

ـ أهذا الكتاب مسموح؟.

خاف الرجل: نعم مسموح. انظر إنّهُ من استيراد الدولة،... هذه رواية ماركيز الأخيرة.

سخر الرجل: واي واي. لم يعد في هذا البلد رقابة.

وأشعلَ سيكارةً ثالثةً عريضةً وطويلةً لا يكاد يتّسع لها فمه الكبير. ونعقت بومةٌ في حلقِه فصاحَ:

ـ أيّها السائق، أريدُ منك أنْ تقفَ عندَ أقرب مطعمٍ فأنا جائع.

ـ عذراً. لم يعدأمامنا مدينة أو مطعم. نحن الآن في قلب الصحراء ولن نصل قبل ثلاث ساعات.

ـ أووف. أنا جائع. جائع. ألا تفهم معنى أنْ يكونَ الإنسانُ جائعاً؟

كاد السائق يضحك من جملة الرجل الأخيرة.

ـ ليس في يدي شيءٌ أصنعهُ يا سيِّدي.

تناول السائقُ جهازَ مكبِّر الصوت المثبت أمامه وقال:

ـ أيُّها المسافرون أسعدتم مساءً، معنا الآن أحد الإخوة وهو السيِّد الذي يجلس في المقعد الأوّل، يعاني من جوعٍ عظيمٍ لن يمهله حتّى نصل إلى المدينة. أرجو أنْ تكونَ رسالتي قد وصلتكم وشكراً.

لم تمضِ دقائقُ حتى أخرجَ المسافرون من حقائبهم وأكياسهم كلَّ ما يحملون من أطعمة وفواكه وخضراوات، وتعاقبوا واحداً بعدَ آخر في وضع الطعام أمامَ الرجل الذي فَرَشَ أمامَهُ جريدةً عليها شعارات وطنيّة كبيرة.

قال مسافر: ليس لديَّ سوى هذا البيض الفاسد، كنتُ أنوي رميهُ عندما نصل.

أجابَ صاحبهُ: قدّمهُ له. إنّه لن يمانع مطلقاً، فمعدتهُ تصهر الحديد.

كان الرجل يأكل أسرع من دوران عجلات السيّارة. ولم يأبه إلى ما يضرّهُ من طعام، ناسياً أنّهُ يعاني من أمراض السكّر وضغط الدم وتصلّب الشرايين والبواسير.

انتفخ بطنه. وضحكت بطّتان سمينتان حمراوان في خدّيهِ. فتح حزامه وفكّ أزرار بنطلونه ولم يلحق بآخرِ زرٍّ إذْ انقطع من حالهِ. وشغلَ البطنُ المتدلّي مساحة الفراغ الحاصل بلحظة.

طقطقت حوصلةُ الصبيّ وهو يتطلّع في عيني السائق بدون كلام. فقد كان صمْتُ السائق جواباً للصبيّ.

وشيئاً فشيئاً، اتّسع بطنه وكبرت مؤخّرتهُ وتفتّقت ملابسُهُ على جسده المنتفخ.

وصاحَ بالسائق: أيُّها المنطلق كمجنون هلاّ فكّرتَ بالتوقّف!؟
ـ هل تريدُ منّي أنْ أقف وسط صحراء؟.
ـ أجل.. أريد ذلك.. فأنا..

وأشارَ بعينيه إلى بطنه المتورّم، ولمّا تزل بقايا طعامٍ على شفتيه وذقنه.

ـ لا أستطيع أنْ أصبرَ حتّى تصلَ إلى المدينة. قفْ هنا، قفْ. وتوقّفت السيّارة وسطَ رمالٍ صفراء لا حدودَ لها.

تعاون الركّاب والصبيّ والسائق على إخراج الرجل من مقعدهِ وإنزاله، فلم يفلحوا قبلَ انقضاء فترةٍ على محاولتهم.

كانَ برميلاً مطعوجاً في وسطهِ.

جالَ ببصرهِ في أرجاءِ المكان المفتوح وقال بعينيه وقد أدركتهُ أحشاؤهُ بالتفريغ وهو يباعد ما بينَ ساقيه القصيرتين، ولا يستطيع ذلك: أينَ أذهب، لا مكان!

ـ إذهب حيثُ شئتَ.

ـ كيف؟.. كيف؟.. هكذا أمامكم في هذا المكان المكشوف.. ألا تستحون؟

قال السائق: سنحفر لك حفرةً كبيرةً تسترُ بها عورتك. هيّا أيّها الصبيّ، وأنتم يا رجال.. تعالوا معي.

.. ولمّا حفروا حفرةً كبيرةً عميقةً في بحر الرمل.. حملوه وأنزلوه إليها خطوةً خطوةً وهو يردّد: على مهلكم.. على مهلكم.

بقيَ وحدهُ يعاني عسراً عظيماً في هضمهِ وأمعائهِ. ومع أوّل حزقةٍ سمعوا أصواتاً ذاتَ رائحةٍ نتنة.

ونادى السائقُ عالياً: هيّا يا رجال. ففهم الجميع مقصدَهُ وأهالوا على غازون الخرشودي التراب وهو يفيض بأحشائهِ ذات الرائحة الكريهة وحيداً.

ورجعَ السائقُ إلى المحطّات والمدن والقرى السابقة يجمعُ كلَّ الذين اضطرّهم الرجل أنْ يترجّلوا عنوةً.

١٩٨٩ ـ الموصل